العرب وحضارة البحر المتوسط

للفرد في مجتمعه صفات رسمية وغير رسمية ، وكثيراً ما يصعب عليه ان يفصل بينهما ، لا لعجز منه بل لأصرار من الناس على تغليب واحدة من هذه الصفات على الاخرى . وعلى الرغم من هذه الصعوبة ، أود الآن ان اتخذ صفة واحدة : صفة مغترب عاد الى اهله فرأى ما رأى ، ففاض لسانه وقلمه بصريح العبارة والكلام ، تدفعه الى الصراحة طبيعة فطر عليها ، ومحبة للوطن الأول قذفها الله في قلبه .

لما يممت وجهي شطر العالم الجديد طلباً للعلم ، كانت البلاد العربية كلها باقسامها الطبيعية والمصطنعة في جهاد ضد الاستعمار والمستعمرين ، وكانت الفكرة السائدة واحدة ، وهي فكرة الاستقلال ، وكانت الجهود موحدة في سبيل الاستقلال .

كان هذا في اوائل العقد الرابع من هذا القرن ، ولم تعدم البلاد العربية آنئذ ، كما لا تعدم اليوم ، فئات تقول بالتعاون مع حكومات الانتداب ، وفئات تقول بعدم التعاون ، واخرى تعرج بين الفريقين . وما لبث ان تفشى في البلاد وبأ من الافكار والآراء والمذاهب تجاوزت موقف البلدان العربية من الاستقلال

المنشود والطرق التي يجب ان تتبع للوصول اليه ، الى تعيين الاصول والغايات . وباختلاف الأصل تفرعت الغايات ، فرجع البعض الى عنصرية بائدة ، وحاولوا ان ينتسبوا اليها ، وينشدوا في نطاقها الجديد غاية غير غايتهم الاولى . وانتسب البعض الى ثقافة ، وجدّوا في خلق الروابط التي تشدهم اليهـــا وتمنعهم عن ثقافتهم الاولى . وكأني بالبلدان العربية آنئذ كبني آدم في ارض شنعار كانوا لساناً واحداً ولغة واحدة فقال بعضهم لبعض : « هلمّ نصنع لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء ، ونصنع لانفسنا اسماً لئلا نتبـــدد على وجه كل الارض » . ولما رأى الرب ذلك قال : « هوذا شعب واحـد ولسان واحد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون ان يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض » . فبلبل لسانهم فكفوا عن بنيان المدينة والبرج ، وتبددوا على وجـــه كل الارض ، وصارت شنعار بابل[1] .

وهذا ما حل بالعرب بعدان كانوا ، فكراً ، لساناً واحداً ولغة واحدة . عزموا ان يشيدوا وحدة للبلدان العربية ، رأسها بالسماء ، وان يصنعوا لانفسهم ثانية اسماً لئلا يتبـددوا على وجه كل الارض . فقال المستعمر « هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهـــذا ابتداؤهم بالعمل . هلم نبلبل لسانهم » . فرماهم المستعمر بالطائفيـة والعنصرية والاقليمية واللغة العامية واللغة الممتازة ، فكفوا عن

---

(١) سفر التكوين - ص ١١ : ١-٩

بنيان الوحدة وتبددوا على وجه كل الارض .

مرادي هنا ، ان اعالج فكرة واحدة من هذه الفكر التي ظهرت في هذا البلدفجأة وقبض لهـــا ، لاسباب طبيعية ولأخرى مصطنعة ، بعض النجاح .هذه الفكرة هي ما يسمى بحضارة البحر المتوسط ، والفئات التي اعتنقت هذه الفكرة تقول ان لبنان واللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عرباً بل فينيقيين ، أما حضارتهم فحضارة البحر المتوسط ، وهم لا يمتون للعرب بصـــلة او قربى الا باللغـــة .

ولن اتعرض هنا ايضاً للفينيقية ، بل اكتفي بالاشارة الى ان الفينيقيين ، على الرغم من تسربهم الى بعض مراكز التجـــارة في الداخـــل ، استوطنوا الساحل لا الجبال[1] ، وكانت الجبال آنئذ مكسوة بالغابات الغضة التي كانت مأوى للوحوش ومكامن للصوص . رد على ذلك ان كل محاولة لرفع بنـــاء القوميات على العنصرية والجنس لا محالة فاشلة ، لان الاصالة العنصرية اليوم معدومة ، لا وجود لها حتى بين القبائل الهمجية في اواسط افريقية . فلم نحاول ان نوجدها في بوتقة العناصر والاجناس حيث اختلط الحابل بالنابل ، وامتزجت دماء الفاتحين والدخلاء بدماء السكان الاصليين مرة بعـد أخرى : بابليون وعموريون وحثيون واشوريون ومتانيون

---

(١) راجع *The Cambridge Ancient History*, vol. II. (Cambridge 1926), pp 379 - 80 ; M. Rostovtzeff , *A History of the Ancient World*, vol. I (Oxford, 1928), pp. 69 seq.

(٢) جايمس هنري براستد « العصور القـديمة » ترجمة داود قربان (بيروت ١٩٣٠) ص ١٢٦ س ١٠ - ١١

وكلدانيون وكنعانيون وفينيقيـــون وعبرانيون وآراميون وانبـــاط وفرس ويونان ورومان وبيزنطيون وعرب واتراك سلاجقة وخليط من الصليبيين واكراد ومماليك واتراك عثمانيون وفرنسيس وانكليز وبولنديون !

ولنرجع الى حضارة البحر المتوسط التي اتخذها البعض مطيـة للفصل بين قطر وقطر من الاقطـــار العربية ، لأن للعرب ، على زعمهم ، حضارة اخرى مختلفة . وهل هنالك يا ترى حضارة عربية وغيرها اسلامية واخرى اوروبية ، الى ما هنالك من الحضارات المزعومة ؟

ان في العالم ثلاث حضارات رئيسية حية[1] : الحضارة الصينية والحضارة الهندية وحضارة ثالثة ينتمي اليها مـــا بقي من العالم المتمدن . فما هو الاسم الذي يجب ان نطلقه عليها ؟ هذه الحضارة مزيج من عناصر مختلفة اختلط بعضها ببعض مرة بعد اخرى . ولعل في هذا الاختلاط سر نجاحها وقوتها . ومن هذه العناصر ما هو مصري ومنها ماهو سومري اوايراني او بابلي او يوناني او روماني او عربي . فلا يحق لنا اذن ان نطلق عليها اسم عنصر من هذه العناصر ولا نقدر ان ندعوها آرية او سامية كما لا نستطيع ان نسميها وثنية او يهودية او نصرانية او اسلامية . فكل هذه صفات مفردة من

(١) George Sarton, « The Unity and Diversity of the Mediterranean World », *Osiris*, vol . II , pt. 9 (September, 1936) , pp. 407 - 408 .

وقد استعنت بهذا الكتيب كثيرا في اعداد هذا الفصل كما يتضح ذلك لكل من يطالع الاثنين .

صفاتها ،غير انها ليست كافية او شاملة .

اما افضل الاسماء التي يمكن ان تطلق على هذه الحضارة ، فهو حضارة البحر الابيض المتوسط ، لأن حوضـــه ، وان لم يكن مهدها ، كان مكان امتزاجها ونموّها [1] . وهذا الاسم شامل ،ويدل على وحدة جغرافية تاريخية ، على الرغم من التقاليد المتبعة التي طغت على هذه الوحدة وقسمت حوض البحر المتوسط الى قارات ثلاث ، هي افريقية وآسية واوروبا . ولست انكر ان لكل من هـــذه القارات وحدتها المنفردة ، غير ان اكمل وحدة هي في هذا الحوض حيث تلتقي كلها .

حدود هذه الوحدة الجغرافية معروفة لا حاجة الى ذكرها . اما صفاتها الطبيعية فهي على الاجمال مشتركة . فهنالك الامطار المبكرة والمتأخرة ، والشمس المنعشة والمناخ المعتدل والفصول الاربعة المتساوية . وكذلك النباتات والاشجار كالتين والزيتون والكرم والعرعر والغار والآس والبلوط والقمح والشعير ، جميعها مشتركة ، وموجودة في جميع انحاء الحوض .

وترى مظاهر هذه الوحدة في اكثر نواحي الحضارة المادية وغير المادية ، التي نمت وازدهرت في حوض البحر المتوسط . فالطعام واللباس والسكن والادوات والصناعات والزراعة والفنون تظهر عناصر مشتركة تفوق عدداً واهمية العناصر المختلفة .

وما يصدق على الحضارة المادية المحسوسة يصدق على الحضارة غير المادية من اجتماعية وسياسية وفلسفية ودينية . إذ نرى في هـــذه

(١) المرجع نفسه ص ٤٠٧

النواحي من حضارة البحر المتوسط عناصر تعود إلى أصول مختلفة، ساهم في ابداعها شعوب متعددة، ثم تسربت إلى الحوض فامتزجت في بوتقته وازدهرت. لان البحر كان مقفلاً كما كان متوسطاً محاطاً بعقبات كثيراً ما اضطرت الشعوب إلى السكنى على الشواطىء. غير ان هذه العقبات لم تكن لتحول تماماً دون المواصلات مع الداخل، بل بالعكس استهوت الشعوب التي كانت في الداخل إلى أن يولوا وجوههم شطر الشواطىء من كل صوب وحدب. فكان ذلك باعثاً على تبادل السلع والامتعة، وانتشار التجارة، ومن ثم انتشار الافكار وتبادلها. فالآثار المستخرجة من سوريا (بمعناها الجغرافي) تدل على تبادل التجارة بينها وبين مصر والعراق وجميع انحاء البحر الايجي.

وكما نرى في حوض البحر المتوسط وحدة جغرافية، نرى فيه أيضاً وحدة تجارية ووحدة اجتماعية ووحدة فكرية.

وقوام الوحدة الفكرية ثلاثة لا رابع لها. الفكر اليوناني، والنظام الروماني، والدين السامي. ولكل من هذه عناصر شتى ساهم في ابداعها اقوام مختلفة. فللفكر اليوناني اصول تمتد الى اقريطش ومصر وبابل وفارس. غير ان اليونان هم الذين جمعوا بينها وكيفوها، فاوجدوا منها ذلك التراث الفكريّ المعروف. وفي النظام الروماني آثار بارزة من صنع البطالسة في مصر، واخرى من عمل الساسانيين والسوريين. غير ان الرومان هم الذين هيأوا لها الفرصة لتوضع موضع العمل، واوجدوا من تجاربهم العملية هذه نظاماً امبراطورياً لايزال النموذج الاعلى في طرق

الحكم والتنظيم . وفي الدين السامي عناصر وآثار تعود الى اصول هندية وفارسية ومصرية،غير ان الساميين صهروها بحرارة ارواحهم فنقوا منها الدغل ، فانجلت الخرافات والاساطير عن دين حيّ فعال بعث في قلب الانسانية الرجاء والأمل ، وكشف له عن الحقيقة حتى رأى اليقين بعين اليقين .

اجتمع تحت لواء هذه الحضارة في اوائل الالف الثانية قبل الميلاد جلّ تراث مصر وبابل،وحمله الايجيون وحلفاؤهم في افريطش. فاحتكروا تجارة الحوض والبحر [1] الى ان قام لمنافستهم فيها ، وانتزاعها منهم ، شعب ساميّ خرج اجداده من الجزيرة العربية قبل ذلك التاريخ بنحو الف سنة ، واستوطنوا الطرف الغربي من الهلال الخصيب . ونزلت قبيلة منهم في السواحل السورية وشغفت بحب البحر فنبغ منها الفينيقيون [2] وهم الذين انتزعوا تجارة البحر المتوسط من ايدي الايجيين . وتمت لهم السيطرة عليها حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد. واصبح البحر وحوضه بفضلهم قاعدة عظيمة لنشر التجارة والفكر . وللفينيقيين الفضل في استنباط الحروف الهجائية من نماذج مصرية ونشرها [3] ، فاخذها عنهم اليونان

(١) Rostovtzeff, *A History of the Ancient World*, vol.I. — pp . 85 - 95.

(٢) *The Cambridge Ancient History*, vol. I , *second* ed. — (Cambridge, 1924),pp . 182 , 589 - 603 ; vol. II (Cambridge. 1926 ,) pp. 278 se 9 .

(٣) B. L. Ullman, *Ancient Writing and its Influence* (New York , 1932) ; E. A.Gardiner « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », *Journal of Egyptian Archaeology*,

والآراميون وغيرهم ، وكان هذه الحروف اثر اعظم في جميع الاعمال العقلية التي ابتكرها العقل البشري .

واذ كانت الحياة في حوض البحر المتوسط برمائية في اساسها ، كانت الملاحة في مياهه والسيطرة على مراكز التجارة في سواحله ، مطمح افكار الشعوب ، والوسيلة العظمى لنشر الافكار . ولما نازع اليونان الفينيقيين السيطرة على الملاحة والتجارة في المتوسط ، نازعوهم في حمل لواء الحضارة [1] . واستلم اليونان في اوائل القرن الخامس للميلاد لواء تلك الحضارة بعد ان مضى على بدئها نحو من الفي سنة ، بقيت في خلالها مزيجاً من عناصر شرقية وعناصر غربية . وكانت كفة العناصر الشرقية في اكثر الاحيان هي الراجحة . ويظهر ذلك جلياً في فحص اي فرع من فروع الثقافة اليونانية في ذلك القرن - اي القرن الخامس قبل الميلاد - لاسيما العلوم الطبيعية التي تعرب عن تغلغل العناصر البابلية والمصرية الى صميمها [2] .

وكان الفرس قد وحدوا الشرق الادنى (ما عدا الجزيرة) ومصر ، وطمعوا في الاستيلاء على ملاحة البحر المتوسط وتجارته [3] ،

---

vol. III (1916) pp . 1 - 16 ; Zellig S. Harris , *A Granumar of the Phoenician Language* (New Haven ,American Oriental Society , 1936) ,pp . II - 17 ; Nabih Amin Faris , *The Story of The Alphabet* (Princeton , 1939) .

(١) Rostovtzeff , *A History of the Ancient World* , vol. I , pp . 268 - 9.

(٢) راجع : Sarton , « Unity and Diversity » .p . 422 .

(٣) M. Rostovtzeff, *Caravan Cities* (Oxford 1932) pp. 19 - 23

فتصدى لهم اليونان واستعرت نار الحرب بينهم ، واستعان الفرس في حملاتهم الحربية بقوة الفينيقيين البحرية [1] ، كما استعانوا باساطيلهم التجارية في ايام السلم ، فكانت تلك الحروب من هذا القبيل استئنافاً للتنافس اليوناني الفينيقي على ملاحة البحر المتوسط وتجارته . وكان من جراء هذه الحروب ان دخل الفرس مجرى حضارة البحر المتوسط وتأثروا بها ، وفي الوقت نفسه افرغوا جعبتهم الثقافية فيها ، وتركوا أثرهم في بعض نواحيها. وامتزجت ، الى حد، حضارة الفريقين المادية وغير المادية .

ثم قام الاسكندر فنشر سلطانه في الغرب والشرق ، ورفع لواء الثقافة الهلينية ، فامتدت حضارة البحر المتوسط حتى اواسط آسيا والهند [2] ، وفي مجراها شرقاً تعاظمت بما دخلها من ثقافات البلدان التي اكتسحها الفاتح المقدوني . وهنالك حقيقة يجب ان نبقيها نصب اعيننا في نظرنا الى الحضارات . فالحضارة اشبه بنهر يبتدئ عند مخرجه من الجبال ضعيفاً ، وتتزايد مياهه وتتعاظم بمياه الجداول التي تصب فيه في مجراه . ومن الخطأ ان نحسبها واحات مبعثرة على وجه صحراء لا اتصال بين واحدة واخرى منها.

وقام البطالسة والسلوقيون بعد الاسكندر يحملون لواء الجمع بين تراث الغرب والشرق ، وبقوا حتى العهد الروماني ينقلون من عناصر الحضارة الغربية الى الشرق ، ومن عناصر الحضارة الشرقية

---

(١) Rostovtzeff , *A History of the Ancient world*, vol . I . p, 252 .

(٢) المرجع نفسه - ص ٣٤٩ - ٣٦٣ .

الى الغرب ، حتى تمّ مزيجهما . ولا يغربنّ عن البال ان ما اقتبسه الغرب من الشرق آنئذٍ كان اوفى واغزر مما اقتبسه الشرق منه في تلك الفترة نفسها .

وما اوشك القرن الثاني قبل الميلاد ان ينتهي الا وحضارة البحر المتوسط قد اخذت شكلاً واضحاً محسوساً . وما كانت تفتقر اليه من توحيد واستقرار جاءها لما تناول لواءها الرومان اولاً ، والكنيسة المسيحية ثانياً . فقد وجدت هذه الحضارة في الامبراطورية الرومانية خير وسيلة لتعزيز مركزها ، ولما نداعت هذه بعد قرون قامت الكنيسة باعباء التبعة خير قيام .

والتقى الشرق والغرب في ظل الامبراطورية الرومانية ، واجتمعا في نظام سياسي واحد ، رجحت فيه المثل الشرقية ، وظهرت آثار البطالسة والساسانيين والسوريين في دستور الامبراطورية كما ظهرت في ديانتها وفي حياة البلاط ، وفي التقاليد الرسمية والالقاب . وكاد الشرق ان يسيطر على الغرب في كل شيء حتى الدين ، لا سيما عندما اعترف الامبراطور ديوقليتيانس بميثراس إلهاً واقرّه حامياً [٢] .

وشاهدت القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ازدياداً عظيماً في انتشار السلع والادوات الشرقية في اوروبا وكثر فيها عدد من التجار والمهاجرين الشرقيين الذين القوا فيها عصا الترحال فحملوا

---

(١) Sarton , « Unity and Diversity » , pp. 424 - 5 .

(٢) Robert W. Rogers , *The History of Ancient Persia* (New York , 1929) , p. 238 .

معهم العادات والافكار الشرقية ، فعمت وانتشرت ، وكان للسوريين نصيب وافر في تلك الحركة حتى قيل (وذلك قبيل منتصف القرن الثاني للميلاد) « إن العاصي يصب في التيبر » .

وتلا الرومان في حمل لواء حضارة البحر المتوسط البيزنطيون، ولنا ان نحسبهم رومانياً مستشرقين ، وانتقل معهم مركز الثقل في تلك الحضارة الى القسطنطينية اي إلى الشرق، وانتقلت زعامة العلم والفلسفة إلى رجالات شرقية من مصريين وسوريين وفلسطينيين واردنيين وآخرين من آسيا الصغرى والعراق. واحتكر الشرق مراكز العلم والفكر الرئيسية فاصبحت القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية ودمشق قبلة العلماء والمفكرين . زد على ذلك ما كان للبلاد المقدسة من اثر في تحويل انظار الامبراطورية المتنصّرة إلى الشرق .

فطوال هذه القرون ، من اوائل الالف الثانية قبل الميلاد ، حتى القرن السادس بعده ، وهذه الحضارة التي نطلق عليها اسم البحر المتوسط نتيجة جهود شرقية وغربية امتزجت عناصرها وتداولت في حمل لوائها دول وشعوب لا تخضع لتصنيف هو في أساسه نسبي ، فما نحسبه شرقاً في هذه الشواطىء هو الغرب في نظر العراق ، وما نحسبه غرباً هو شرق في نظر أهل تونس .

وفي القرن السابع دخل العرب معترك التاريخ وكانت فاتحة

---

(١) الفائل جوفينال • راجع : Sarton, « Unity and Diversity», pp. 427 - 8 ; Juvenal, *Satires*, III: 62 -5 ,in *Juvenal and Persius* , ed. and tr. G. G.Ramsay (Harvard University Press, Cambridge , 1940) , t. p. 36 , tr. p. 37 .

اعمالهم ان قضوا عـــلى امبراطورية الفرس وزعزعوا اركان الامبراطورية البيزنطية ، فجردوها من أغنى ولاياتها ، ومـا لبثوا ان نازعوا الروم وما بقي من الرومان ، على ملاحة البحر المتوسط وتجارته ، وانتزعوها منهم . ولم يقض العرب في ذلك على وحـدة البحر المتوسط الاقتصادية والثقافية ، كما يزعم بيرن [1] ، بـل عززوها ، لأن البحر المتوسط أصبح بحراً عربياً وبقي كذلك من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر. ونشر العرب ما ورثوه من الفرس وما اقتبسوه عن البيزنطيين والاقباط ، وما اخذوه عن النصارى واليهود وصابئة حران الوثنيين في جميع انحـاء الحوض ، حوض البحر المتوسط . وبكلمة أخرى حمـل العرب لواء حضارة البحر المتوسط كما تسلموها وزادوا عليها ونشروها في انحاء امبراطوريتهم من الاندلس غرباً الى حـدود الصين ، ومن بحر الخزر شمالاً الى منبع النيل .

استولى العرب على ملاحة البحر المتوسط وجعـلوا البحر بحراً عربياً ، غير ان حضارته استولت عليهم فدخلوا في مجراها ، وصبوا فيه ما كانوا قد استقوه من مياه الثقافات الاخرى ، فتعاظم النهر ، وارتفعت مياهه بعد ان كادت تنضب . ورفع العرب للحضارة المشتركة هذه ابراجاً في حواضر الحوض - حوض البحر المتوسط -

---

(١) Henri Pirenne , *Mahomet et Charlemagne*, 7 th ed. (Brussels, 1935). Cf . George Macaulay Trevelyan, *History of England* , New Impression (London , Jan . 1943) , p. 135; Ernest Baker , « The Crusades » in *The Legacy of Islam*, ed.T. Arnold and A. Guillaume (Oxford, 1931)pp.42-3

في بغداد ودمشق والاسكندرية والقاهرة وتونس وفي مدن الاندلس الرئيسية – طليطلة وقرطبة واشبيلية وفي صقلية وجنوبي ايطاليا ، فاصبحت هذه قواعد لنشر عناصرها المادية وغير المادية .

فالدور الذي قام به العرب تجاه هذه الحضارة هو هو الدور الذي قام به قبلهم من سبقهم من شعوب البحر المتوسط كالايجيين والفينيقيين واليونان والرومان ، استولوا على ملاحة البحر المتوسط وتجارته ، ومن ثم حملوا لواء حضارته وساهموا في توسيعها والزيادة عليها وهبوا لنشرها في ارجاء سلطانهم . وعندي ان العرب لم يدخلوا في التاريخ العالمي الا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته .

ومنطق الحقائق هذه يدفعنا الى الاقرار ان العرب جزء لا يتجزأ من حضارة البحر المتوسط ،وجزء لا يستهان به في تكوينها وبقائها .ولا تصلح ولن تصلح مطية لفصل العرب عن باقي الشعوب الغربية من حيث الثقافة والحضارة ، كما لا تصلح لفصل قطر من الاقطار العربية عن سواه . ولا يحاول هذا الا من ألمّ به حول فكري .

كيف نشأت إذن هذه الفكرة ؟ ومتى ؟ وما هي الاسباب التي ادت الى ظهورها وتفشيها ؟

لم تظهر هذه الفكرة علانية الا بعد الثورة السورية حين اخذت تتسرب الى بعض الاوساط حديثاً للموائد . وبقيت مقتصرة على ذلك الى سنوات . غير ان بدءها يعود الى ما بعد الحرب العالمية

الاولى في اثناء انعقاد مؤتمر الصلح في فرسايل . ولعل بعض القراء يذكر ادوار تلك المهزلة لا بل تلك المأساة . فقد سبق لبريطانيا وفرنسا ان وضعتا بالاتفاق مع روسيا تصميا لاقتسام البلدان العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية ، ودعي هذا التصميم باسم عرابيه الرئيسيين فعرف باتفاق سايكس بيكو . غير ان الامور لم تجر حسب رغائب رجال السياسة فحلت الضغينة محل الاتفاق بين الحليفتين . ثم كان ما كان من انعقاد مؤتمر سان ريمو ، وطالبت فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان . ولم تكد تناله حتى اخذت تسلك مع سورية سياسة ومع لبنان اخرى . وكانت ترمي من سياستها السورية إلى إضعاف ما حسبته معقل المقاومة ، ومن سياستها اللبنانية إلى تعزيز ما حسبته حصن التعاون . فكان لبنان الكبير ، وكان بين ليلة وضحاها اربعة سناجق مستقلة في ضمن البقعة التي نعمت بشهر من العسل قصير تحت ادارة فيصل العربية (١) . غير ان الخوف من اتحاد كلمة البلاد ، على الرغم من هذا الامعان في التقسيم ، حدا الدولة المنتدبة ان توجد اساساً امتن لوجودها .

وظهرت في الوقت نفسه الفكرة الفرعونية في مصر ، ولعل اصولها ترجع الى ما بعد اغتيال بطرس غالي ، وبقيت فكرة يتعاطاها الكتاب كتعاطي الخمر الى ان حل محلها الاستقلال شراباً للمؤمنين . فاوحت هذه الفكرة الى الفرنسيس فكرة الفينيقية (٢)

---

(١) George Antonius , *The Arab Awakening* (Philadelphia , 1939) , pp. 369 - 86 .

(٢) لا بد لي أن اذكر هنا مجلة شهرية اصدرها شارل الفرم باسم :

ثم ارتفع في اوائل العقد الرابع من هذا القرن صوت موسوليني في رومه ينادي بالمتوسط *mare nostrum* واوجد جمعية لرفع لواء حضارته (١) فاعتنقها دعاة الفينيقية دعامة لتسند جدران الفينيقية الضعيفة الأركان . وقام عمال الدول المنتدبة الفكريون بايعاز منها لنسج لباس لهذه الفكرة حتى تستر به معايب جسمها . ومن المسلم به ان اللباس يغدق على الجسم رونقاً خلاباً اكثر من العراء ، ولم يكمل هذا اللباس الا في منتصف العقد الرابع من هذا القرن عندما عرضت الفكرة متلفعة به في كتاب تاريخي موجز (٢).

هكذا زرعت اخراس التنين ، وهكذا كانت بداءة هـــذه الفكرة . أما ما لاقته من نجاح محدود لدى بعض الفئات ، فيعود الى حَوَل فكري صعب الشفاء . فقد ترى هذه الفئات خطأ ان للعرب اليوم قبلتين : الصحراء والشرق قبلة ، والمتوسط والغرب قبلة اخرى . وتخشى هذه الفئات ايضاً ان يولي العرب وجوههم شطر الصحراء . وحقيقة الامر ان العرب لم يولوا وجوههم شطر

La Revue Phenicienne صدر العدد الأول منهـا في تموز ١٩١٩ واحتجبت بعد صدور العدد السادس منها في كانون الاول من العام نفسه . وهذه اول مرة تقرن فيها الفينيقية بلبنان . اما المجلة الـتي اصدرتها أرورا طراد اوجور في كانون الثاني من ١٩٣٨ تحت اسم (*Phenicia*) فلا اهمية لها لانها صدرت متأخرة وكان العدد الاول منها العدد الاخير أيضاً .

(١) راجع : *Oriente Moderno* , vol. XIV (1934) , pp. 16 - 21 , 199 .

(٢) اسد رستم وفؤاد افرام البستاني - طبعة ٢ (بيروت ، ١٩٣٧)

الصحراء البتة ، وجميع الدلائل تشير الى انهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل القريب او البعيد . ومنذ خرج العرب من الصحراء قبل ثلاثة عشر قرناً ،ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق ، ولم يكن للصحراء أثر محسوس في ثقافتهم وحضارتهم منذ نقل علي بن ابي طالب عاصمته الى الكوفة . ولما اكتسحوا الهلال الخصيب ومصر وورثوا ثقافتها دخلوا في التاريخ العالمي ، ودخلوا حوض البحر المتوسط وساروا في مجرى حضارته .

لا فرق اساسياً اذاً بين حضارة العرب وغيرهم من شعوب حضارة البحر المتوسط ، ولا فرق اساسياً بين قطر وقطر من الاقطار العربية من هذا القبيل . جل ما هنالك فروق اقليمية وتفاوت عارض لا يمت الى الجوهر بصلة ، وكل عارض زائل .

اما رسالة العالم العربي تجاه هذه الحضارة التي كانت ولا تزال وسيلته المثلى للتعبير عن آماله و امانيه وفكره وروحه ، فهي قيامه بفضل مركزه الجغرافي الفريد بمهمة الوسيط بينها وبين الحضارات الاسيوية المهرمة ، فيحمل الى الشرق فتوة الغرب وعلمه ، ويكشف للغرب عن حكمة الشرق وروحه . ولا تنحصر هذه المهمة في قطر عربي دون سواه (١) ، على الرغم من ان لبنان في عصرنا هذا كان البادئ في تحملها ، ولا يزال في مقدمة الاقطار العربية مجداً

(١) وفي اسماء مراكز النقل الثقافية في التاريخ رد على هذا الادعاء : الاسكندرية ، انطاكية ، الرها ، حران ، نصيبين ، جند يشابور – كلها خارج لبنان . راجع .

De Lacy O'Leary , *Arabic Thought and its Place in History* , (London , 1939) , pp. 1 - 56 .

في تأديتها . غير ان ذلك لا يبرر ولن يبرر موقف الذين يحاولون عبثاً اتخاذ هذه الحضارة وقيام لبنان بتأدية رسالته تجاهها مطية للفصل بينه وبين اخوته واخوانه في العروبة ، والاخوة غير الجوار مهما كان حسناً .

اما نتيجة هذه المحاولات فلم تلاق نجاحاً كاملاً كما لم تفشل كل الفشل ، بل نجحت في غايتها الاولى فبلبلت لسان الشعب ، حتى كاد بعضهم لا يسمع لسان بعض . غير أنها لم تنجح ولن تنجح في القضاء على هدفنا الاوحد في بناء وحدة للبلدان العربية رأسها بالسماء ، وفي عزم العرب على ان يصنعوا لانفسهم ثانية اسماً لئلا يتبددوا على وجه كل الارض .

واذ فشل اصحاب هذه المحاولات في مهمتهم الهدامة ، عادوا الى العمل يدفعهم حقد الهزيمة وخبرة الميدان إلى جهود جديدة جبارة في سبيل الوصول الى غايتهم . وانصرفوا بعد ان ادركوا عقم الهجوم المباشر الى اساليب غير مباشرة ، فقالوا ان البلاد تدين بفكرتين هما الديموقراطية والثيوقراطية [1] ، وقالوا

---

(١) راجع تصريح الياس حرفوش في « البشير » بيروت – ٥ ت ٢ ١٩٦٦ نقلا عن « الهدى » – نيويورك – ٢١ ت١، ١٩٦٦ .

راجع ايضاً رد عبد المسيح حداد صاحب « السائح » النيويوركية على تصريح حرفوش – « السائح » – نيويورك ٢٨ ت٢، ١٩٦٦ .

وراجع كذلك نص الوثيقة التي رفعها الاب انطون عقل الى منظمة الامم المتحدة ودعا فيها الى جعل لبنان وطناً قومياً للنصارى – « الديار » بيروت ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ك ١ ، ١٩٦٦ .

ظهرت هذه الوثيقة بالانكليزية في كراس (عدد صفحاته ٣٩) طبع في

بالطابع الخاص ، واخذا حديثاً يلقّمون هذه الفكرة الانعزالية بجلباب العلم والادب في سلسلة من المحاضرات[1] ترمي إلى تعزيز الاتجاه الذي توخاه « تاريخ لبنان الموجز » .

وعندي ان صح ان للبنان طابعاً خاصاً ، فهو السير في طليعة البلدان العربية في حمل لواء النهضة العربية الحديثة من اوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . أما مسألة الديموقراطية والثيوقراطية فبراء مصطنع لان العرب قد قطعوا تلك المرحلة في تاريخ تطورهم السياسي ، منذ قرن وبعض قرن ، ولا نعثر على بقاياها إلا في الجزيرة ، تلك الجزيرة التي فقدت اثرها في تعيين اتجاه العرب السياسي يوم خرج علي بن ابي طالب الى الكوفة . وما الجزيرة اليوم من باقي الاقطار العربية إلا كالبلاد الاسبانية من العالم اللاتيني ، كلتاهما تحتفظ بتلك العروة المتقطعة بين الدين والدولة ، غير ان اثرهما محصور ضمن حدودها ، ولا يتعدى تلك الحدود الى الخارج . وبالعكس فأثر العوامل العالمية في تعيين اتجاهها اظهر ، وهما

كذا في اوائل عام ١٩٤٥ على الارجح ، تحت عنوان :

S. O. S. The Lebanon The « Christian National Home » of the Near East (n. d.)

وبالعربية تحت عنوان : « لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الادنى » وعن هذا أخذته « الديار » مع تعديل طفيف .

(١) راجع برنامج « الندوة اللبنانية » للسنة الاولى (١٩٦٦ – ١٩٦٧) . نشر هذا البرنامج على حدة ونشر ايضاً في جريدة « بيروت » ٣ ت٢ ١٩٦٦ .

تسيران على الرغم من جميع العناصر الرجعيـة الى فصل الدين عن الدولة . وعندي ان إثارة هذه المسألة ، مسألة الثيوقراطية ، رجعية في اتجاهها ونتائجها ، اذ تعيد بناء حواجز متهدمة ، كان الاولى ان تمحى اثارها ، وتدفع الى غياهب النسيان .

وجوهر العروبة التي ندعو اليها تقدمي . وهي ما برحت تسير الى الامام . وشأن كل حركة تقدمية تتقدم حيناً وتتأخر حيناً آخر ، غير انها تعود الى السعي فتعوّض عما خسرته ، يوم تقهقرت وتزبد ، إلى ان تصل غايتهـــا المنشودة . وهي علاوة على صفتها الاساسية التقدّمية ، واسعة الصدر كبيرة النفس ، ما فتئت تفسح المجال لمساهمة جميع ابنائها في رفع صرح مجدها على اختلاف مللهم ونحلهم .

فسيروا بها على بركة الله الى المراعي الخضر ، واوردوها الى مياه الراحة ، وردّوا لها نفسها ، واهدوها الى طريق البر . وللعروبة هنالك اليوم ، كما كان لها في الماضي ، آفاق بعيدة تجوبها ، وافلاك واسعة تحلّق فيها كما حلقت فيها من قبل ، واضاءت بنورها طرق الانسان ، وبددت ظلمات الارض ، وكانت هدى للعالمين .